

موسيقى المخمورين ! وأغاني المخدورين التأهين ! بقلم الأستاذ " . . . "

استمع إلى أية مقطوعة موسيقية أو غنائية - إلا الشاذ النادر - مما يذاع آتاء الليل وأطراف النهار في مصر يخيل إليك أن عازفها أو مغنيها مخمور يعزف لمخمورين ، ومخدور تأه عن الوعي ينشد لمخدورين تأه عن العقول ، فإذا أفاق أو أفاقوا بطل العزف والغناء ، وبطل الطرب والاستماع ؟

ما من قطعة أو لحن إلا وهو يخيل للحنس مجلس شراب ، تفوح فيه رائحة البخور ، ويعبق فيه أريج المجامر ، ويتصاعد منه دخان الزجيلة ، وقد جلس المستمعون على " الشلت " مخمورين مخدورين مفككي الأوصال ، عيونهم نصف مغمضة ، وأذهانهم شاردة ذاهلة ، تبحس في أجسادهم شهوات ، وتسبح في أذهانهم " تهيؤات " تصور لهم اللحم العارى والزروات الحيوانية ، فلا يقعدم عنها إلا الخمار والدوار !

وليست المسألة مسألة ألفاظ رخيصة أو مائة مما يأخذه بعض النقاد على الأغاني المصرية في هذه الأيام ، ولكنها مسألة روح التلحين وروح التطريب التي تغلب على الموسيقى والغناء حتى لتبدل الألفاظ وتغير المعاني وتتحور العناوين ، ثم تبقى بعد ذلك كله روح الأداء الرخية المتكسرة ، وروح التلحين المائعة التأهية ، تخرج نغمات السكرى وتصور تهيؤات المخدورين وتحدث عن الشهوة المريضة في أجساد متحلة مخمورة !

وعبت أن نلوم محطة الإذاعة أو أن نلوم المؤلفين ، ما دام الملحنون والمطربون كافة هذه روحهم وتلك نشأتهم ؛ فالعيب هو عيب النشأة الموسيقية في الشرق العربي كله ، إذ أن ما تدعوه " موسيقى شرقية " مأخوذ في أصله عن الموسيقى الفارسية التي نقلها الجوارى والعاذرون من الفرس إلى قصور الخلفاء وغير الخلفاء ، تلبية لمجالس الشراب والقيان دون غيرها من الأغراض .

خلقت هذه الموسيقى إذن لتلك المجالس التي تحدثنا عنها " ألف ليلة وليلة " حجرات مقفلة كل من فيها سكارى مخدورون ، تطوف عليهم الساقيات عاريات أو شبه عاريات بالكؤوس والأباريق ويعبق دخان الزجيلة والبخور فوق رؤسهم ، حتى تخمدر أوصلهم

وتسبح خيالاتهم ، ثم تعزف لهم الجوارى أو يغنى لهم المطربون ، فيتأيلون من السكر والنغم ، وأمامهم الغم الرخيص ، ووراءهم المقصورات فيها كذلك لحم رخيص !

لم يكن لهذه الموسيقى آفاق أخرى غير آفاق السكر والشهوة ، إلا ما يتغللها في بعض الأحيان من التعبير عن الكبت والحُرمان ! والعبرة في هذا بروح الفن لا بالألفاظ الأغنية ، فقد يعي التاريخ كثيرا من الأغاني في غير الفزل وغير البكاء ، ولكن المجالس التي كانت هذه الأغاني تقال فيها لا يمكن أن تخرج لنا خاليا من التطريب المخدور والتمتع المتأيل ذات اليين وذات الشمال تلبية للسكر والخمار !

ونحن نشهد أمثلة لهذا في بعض أغانينا ، فهناك ناشيد وطنية يفرجها المطربون وكأنها رقصات متخاذلة وتميعات متراخية ، وتأوهات حزينة ، منع أن أنفاظها وأوزانها تتضح بالقوة وتضج بالفتوة . فيجب ألا نتخذنا الألفاظ عن طريقة الأداء ، والموسيقى التي تنشأ في جو مجالس الشراب لا تستطيع أن تؤدي مطالب الحياة الأخرى ، ولا أن تسمو فوق نداء الأجساد المهزولة ، وزروات الأرواح المهدودة !

العيب إذن هو عيب هذه "الموسيقى الشرقية" التي لا تلي من أغراض الحياة إلا أغراض مجالس الشراب ، وقد تطورت في محيطها الخاص من العازف أو العازقة إلى "التحت" الكامل ، ولكن بقيت لها روحها وجوها ومجلسها ولا يبعد بنا تخيال كثيرا حتى نتصور هذا الجو . ففي الليالي التي يحياها المطربون والمطربات في هذه الأيام شبه كبير بها يدركه من يأخذ نفسه بمشاهدتها وملاحظتها .

فن هم المستمعون أو غالبيتهم ؟ جماعة تهيئوا للسمع بكؤوس الشراب ، وجاءوا إلى "الصالة" مخمورين أو مخدورين ، وما إن يأخذ المطرب أو المطربة خاصة في أداء هذه الألحان المتكسرة بأصوات متأوجة متناوحة ، تتغللها تأوهات جنسية مريضة حتى تهتر أجساد أولئك السكرارى وتضج حناجرهم بالآهات وتنفلت من أفواه بعضهم ألفاظ وأصوات تدل على حقيقة ما أثارته هذه النغمت في دمائهم وغرائزهم . وبذلك ينفسون عن الكبت والتشهى ، حتى تستثيرهم المطربة بحركة جديدة أو نغمة معروفة فيعودوا إلى الاهتزاز من جديد وإلى الهتاف من جديد وإلى العريضة من جديد !

وليست هذه "الصالات" وتلك "الخوت" إلا صورة مكبرة لمجالس الشراب وللقيان المغنيات والعازقات ، ولن تبلغ هذه الموسيقى إلا أن تكون هكذا ، وإلا أن تصلح لمثل هذه المناسبات ، دون غيرها من المناسبات الإنسانية العالية ، أو الصور الوصفية ، أو تصوير الحالات النفسية ، أو استجاشة الفتوة والحمة .

تلك هي نشأة "الموسيقى الشرقية" التي يحرص عليها معهد الموسيقى الشرقى وينفق على تعليمها عشرات الألوف من الجنيهات فيخرج نسفاً مكرورة من العازنين والمطربين ، كل وظيفتهم تلبية مجالس الشراب وما يشبه مجالس الشراب ، فإذا حاول بعضهم أن يكون موسيقاراً مجدداً عمد إلى بعض الألحان الأوربية فزج بينها وبين الأوضاع الموسيقية الشرقية كما تمزج بين "الشمبانيا" و"العرقوس" ! وأخرجها مائة مسترخية باكية ذليلة مريضة.

وبعض هؤلاء يحتاج على سلوك هذا الطريق بذوق الجماهير واستجابة الجماهير . والجماهير معذورة ، فهي مخدرة ليل نهار بهذه الألحان وليس لديها وقت تفكير فيه وليس لها غذاء آخر توارن بينه وبين هذا الغذاء . والاحتجاج بالجمهور على كل حال وسيلة التاجر لا الفنان .

على عكس هذه النشأة سارت الموسيقى الغربية والموسيقى المصرية (وهى شئ آخر غير الموسيقى الشرقية) فكل من هذه وتلك نشأت في جو المعابد — وللمعابد رهبة — نشأت رائحة هائلة تحاول أن تحوط المستمعين بجو مرهوب وأن تنقلهم إلى السماء وأن تبعدهم عن صغار الدنيا وتفاهة العيش ، وأن تصلهم بالآلهة والأرباب .

فأما في أوربا فقد نشأ أعظم الموسيقيين — كما نشأ أعظم المصورين والمثاليين — في حجر الكنيسة ، وكانت موسيقاهم صلة بين عالمى الفناء والبقاء ، وبين الأرض والسماء ، حملت في ثناياها رهبة وعظمة لم تفارقها حينما خرجت بعد ذلك إلى الطريق وإلى الأوبرا وإلى تلبية الأغراض الحربية والاجتماعية ، إذ أنها كانت تحمل عناصر صالحة للتسامى والتعبير عن الأجواء النفسية العالية .

تلك هى الموسيقى الارستقراطية ، فأما الموسيقى الشعبية فقد كانت تصاحب الأغاني الشعبية وتصور ذواتها ، فقد روى أن "هوميروس" كان يغنى أناشيده ، وكان العازفون الجوالون يلحنون أغانيهم فيضطرم هذا إلى الملاءمة بين المعنى والنغم والجو الشعبى الطليق الذى يعيش فيه ويغنون له .

وكذلك نشأت الموسيقى المصرية في المعابد والمياكل كما نشأت في أوساط الجماهير وترنيمات العمال ، ولسوء الحظ أن هذه الموسيقى لم تسجل في "نوتة" حتى نستعيدها الآن . ولكن بقية من موسيقى المعابد حفظتها تراتيل الكنيسة النبطية ، وبقية من الموسيقى الشعبية حفظتها ألحان الصميدة وأغانيهم الشعبية ، وفي الأولى تلمح حتى اليوم الرهبة والخشوع والتحويل ومحاوله الصمود عن جو الأرض الموبوء . وفي الثانية تلمس شيئاً المكروب ، وحنين الرب ، وبث المحروم ، ونجوى المكلوب . وهذا هو تعبير الشعب الذى يرسف في المظالم والحرمان عشرات الألوف من السنين .

وقد وجدت الموسيقى الغربية من استطاع أن يتقلها من جو المعابد والهياكل إلى "الأوبرا" وإلى تلبية الحالات النفسية ، وإلى تصير الطبيعة ، وإلى الأغراض الإنسانية العالية والأغراض الاجتماعية العامة ، ولم تجد الموسيقى المصرية من يخرجها من عزلة المعابد والهياكل ، بل لم تجد من يسجلها لتبقى لنا أصولها — إلا بقية معدلة في أناس — ، كما لم تجد الموسيقى الشعبية — ولا تزال معالمها في أغاني الصعيد — من يعنى بها ويستوحىها ويرتقى بها ويتوعها .

ونهضة الموسيقى المصرية موقوفة الآن على الفنان الموهوب الذى يستجمع بقاياها من الألحان الكائسية ومن الأغاني الصعيدية ، ثم يحاول أن يجعل منها موسيقى عصرية تلي حاجات النفوس وأغراض الشعب ودواعى المناسبة فى الجيل الجديد .

وما من شك أن استيحاء هذه الأصول الباقية عمل صعب ، لأن هناك فصلا محيقا من الزمن ومن التطورات النفسية والعقنية والاجتماعية والدينية والسياسية ، ولكن هذا هو السبيل الوحيد لإيجاد موسيقى مصرية مستساغة تلي مطالب النفس المصرية التى لا تزال مصريتها سارية فى دمها وأحاسيسها من وراء القرون والأجيال ، على رغم الفتوحات والتقلبات ! ولم يج التاريخ الحديث فى مصر إلا مغنيا واحدا موهوبا لم يمهله القدر لىؤدى رسالته ، هذا الفنان الموهوب هو المرحوم " سيد درويش " فهذا هو الرجل الذى حاول — فى حدود ضيقة — أن يصل بين الموسيقى وبين الطبيعة أو بينها وبين الحالات النفسية . هذا هو الرجل الذى كان يترصد للعالم فى غدوهم ورواحهم وفى أغانيهم وأناشيدهم ليصوغ من روحهم وجوهم أغاني لهم وأناشيد مترعة من أحاسيسهم ممثلة لظروفهم ، ومن هنا التهموها وترنموا بها كأنها رجح شعورهم وصدى ضميرهم . وهو الذى كان يترصد للطبيعة فيستوحىها النعمة والجو فوق القناطر الخيرية فى الليالى القمرية حيث تظهر أشباح الأجداد فى إحدى رواياته لتمتلى نفسه باللحن وبالجو قبل أن يثبتته على الورق " مسافات وأرباعا وأنصافا " .

ثم مات !!!



إن الدعوة التى أدعوها لاستيحاء بقايا الموسيقى المصرية دعوة صعبة المثال ، وسيجدها الكثيرون من المثقفين شبه خيالية ، كما أن الذين يدعون أنفسهم موسيقيين وملحنين سيفغرون أفواههم عجبا منها ، لأن ثقافتهم لا تسمح لهم بمعرفة شىء من هذه الاتجاهات . وتلك هى المصيبة ، إذ أن الثقافة عنصر أساسى لأى فنان فى هذا العصر ، ولكنا لانطالب بها الموسيقيين كما نطالب الأدباء وبقية الفنانين !

إلا أنها دعوة يجب أن أجهر بها أعلى كل حال ، فقد يكون القدر في هذه الأيام أو فيما بعد ينجح لنا فنانا واحدا موهوبا تفتح ملكاته في هذا السياق ، فيصل الماضي بالحاضر ويصوغ للمصريين ألحانا من قلب مصر ، لا من قلوب شتى لاتربطها بالمصريين رابطة !

إن الموسيقى الغربية غنية بكل الألوان ، وقد يخطر لبعضنا أن الاقتباس منها أقرب متاولا وأقل كلفة ، ولست أنكر أنني وكثيرين غيرى من المصريين يطربون لبعض الألحان الغربية ولا سيما ما يصور منها حالات نفسية وما يعبر عن مجالى الطبيعة . ولكن الفنون لاتنقل نقلا فهي مستمدة من قرارات النفوس وأعماق الأمزجة ، ولست أشك في أن الألحان المصرية الضائعة تستجيشنا لو أعيدت على أسماعا أضعاف ما تستجيشنا الألحان الأوربية حتى ما نستسيقه منها استسافة تامة .

وعلى أية حال فالذين يطربون لبعض الألحان الأوربية " يقرفون " بهذا التعبير العامى من الألحان المسروقة منها مما نقله بعضهم إلى الموسيقى الشرقية ، " يقرفون " وتتمتع نفوسهم من " القرف " لهذا الخلط الذى لا يخرج عن خلط " الشمبانبا " بالعرقوس " سواء بسواء ! .

فإذا خطر لأحد منا أن ينقل الموسيقى الغربية إلى مصر وأن ينهض بهذا الفن عن هذا الطريق فيجب أن يختار طريق النقل الصريح ، وهيات في هذه الحالة أن تلبيه الطبايع أو الأمزجة المصرية التى عاشت في أجواء أخرى غير أجواء تلك الألحان المنقولة .

أما محاولة ترقية الأغنية المصرية عن طريق ترقية المعانى والأغراض وتنقية الألفاظ والعبارات فهى محاولة محدودة الأثر ، بل محاولة شكلية لاتعمق النفس الإنسانية التى تتأثر باللحن أشد من تأثرها باللفظ وتستجيب للنعمة قبل أن تستجيب للعنى . واللحن والنعمة مرهونان بالموسيقى والملحن قبل المؤلف والمنفى .

وقد تبرأ القطعة في تأليفها من السقوط المعنوى والقبیح اللفظى ثم تخرج من فم المطرب والمطربة شائبة منكرة فتؤثر بنفاتها وأدائها تأثيرها السيء الذى تتحاشاه في الألفاظ والمعانى .

فاللهم ارزقنا فنانا واحدا موهوبا يصل الماضى بالحاضر ، ويستنقذ لمصر نفاتها الضائعة في ثنايا الأزمان السحيقة ، ليصوغ منها فنا جديدا له من الماضى جذور وبذور .

“ س . . . ”